وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين-سطيف02 **كلية الآداب واللغات**

قسم اللغة والأدب العربي **التخصص: دراسات أدبية**

السنة: الثانية ليسانس **السداسي: الرابع**

المادة: الحداثة في الأدب العربي

المحاضرة الرابعة: بيان الحداثة "أدونيس"

يعد "أدونيس" (علي أحمد سعيد) وجها بارزا من وجوه الحداثة العربية المعاصرة. والحداثة عنده تتميز بخصوصية كبيرة، فقد شكلت ولا تزال تشكل لديه هاجسا كبيرا نذر له حياته ووقته، ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى بعض إنجازات هذا الرجل في مجال الكتابات التي تحاول أن تنظر للحداثة العربية، بل أكثر من ذلك، إن أدونيس في ما كتبه حاول أيضا أن يؤسس دون قواعد ومقاييس، لثقافة إبداعية أدبية ونقدية مضادة (أو ضدية)، هي بالذات ثقافة الحداثة العربية المعاصرة، أو هي بالأحرى ثقافة الأدب المضاد التي تسعى إلى توضيحها، فإذا الحداثة تشكل جزءا هاما منها. يقول في مستهل كتابه (مقدمة للشعر العربي) في الصفحات الأولى من الكتاب إنه مقدمة لدراسات أخرى، تطمح إلى تحقيق أربعة أهداف أساسية، يحددها أدونيس تحديدا دقيقا، نقله كما هو لأهميته الكبيرة. يقول أدونيس محددا تلك الأهداف الأربعة التي يطمح إلى تحقيقها من الدراسات اللاحقة، والتي ستأتي بعد كتابه (مقدمة للشعر العربي):

«1- إعادة النظر في الموروث الشعري العربي، بحيث نفهمه فهما جديدا، فنعيد تقييمه، ونمارس قراءته ودراسته على ضوء هذا كله في مدارسنا وجامعاتنا.

2- التوكيد على أن تغير الشعر العربي ليس تغيرا في الشكل أو طريقة التعبير وحسب، وإنما هو قبل ذلك تغير في المفهوم ذاته.

3- تجاوز الأنواع الأدبية (النثر، الشعر، القصة، المسرحية...إلخ)، وصهرها كلها في نوع واحد هو الكتابة.

4- وضع الإبداع والنتاج الشعريين العربيين في منظور التجاوز الدائم، وتقييمهما استنادا إلى هذا التطور. هكذا لا تكون قيمة النتاج أو الإبداع في ما يعكسه من أبعاد الثورة المتحققة، بقدر ما يكون في ما يختزنه أو يشير إليه من أبعاد الثورة الآتية»[1].

[1]- أدونيس: الثابت والمتحول، ج03، ص 10.

لقد ارتاد "أدونيس" مجال النقد والتنظير "مستظلا بالحداثة، مؤرخا، ومنظرا، ومؤولا لها. وقد قطع مسافة طويلة من الإبداع والبحث منذ أن كانت الحداثة عنده هاجسا، إلى أن تبلورت في دراسات ومواقف وبيانات»[2].

ولقد كان صدور كتاب (مقدمة الشعر العربي) بالفعل كما قال صاحبه فاتحة البدايات لأعمال نقدية وتنظيرية، عرف بها صاحبها، وزادته شهرة وتألقا واستحقاقا لأن يكون أحد أكبر المنظرين للحداثة الأدبية والنقدية العربية المعاصرة. وهي: زمن الشعر (1972م)، الثابت والمتحول بأجزائه الثلاثة (الأصول / تأصيل الأصول / صدمة الحداثة) (1774م-1978م)، فاتحة لنهايات القرن (1980م)، سياسة الشعر (1985م)، الشعرية العربية (1985م)، كلام البدايات (1989م)، الصوفية والسريالية (1992م).

تناولت كتبه النقدية والتنظيرية بعد كتابه "مقدمة الشعر العربي" مبرزة أهمية الثقافة الجديدة ممثلة في النظرية الحداثية في الأدب والنقد العربيين التي كان أحد أبرز أهدافها، إحداث قفزة نوعية هائلة، وذات امتياز في فهم الأدب والإبداع، وفي ترسيخ ثقافة الحداثة العربية.

ويبدو أن الصراع السياسي والاجتماعي بين القديم والحديث في الخلافة كان قائما، وهو يعكس مبدأ الحداثة بشكل من الأشكال، وقد كان الصراع قائما "بين النظام القائم على السلفية، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام "[3]. وقد تأسس هذا الصراع وازداد حضورا في الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع العربي في العهدين الأموي والعباسي؛ حيث برز تياران للحداثة: "الأول سياسي – فكري، ويتمثل من جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم، بدءا من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج، مرورا بالقرامطة والحركات الثورية المتطرفة. ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية الإلحادية، وفي الصوفية على الأخص. وتلتقي هذه الحركات الثورية – الفكرية حول هدف أساسي، هو الوحدة بين الحاكم والمحكوم في نظام يساوي بين الناس"[4].

أما التيار الثاني، فكان تيارا فنيا، كان يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية، كما تمثل عند أبي نواس، و"إلى الخلق لا على مثال، خارج التقليد وكل موروث، كما عند أبي تمام"[5]. ويتبين لنا أن الاتجاه الأول يلغي الأرستقراطية – الوراثية في الحكم، وأما الاتجاه الثاني فكان هدفه إلغاء عصمة الأوائل في الفن والإبداع.

والحقيقة أن التيار الفني يسبق دائما التيارات الأخرى الهادفة إلى التغيير، سواء كان هذا في الثقافة العربية أو الثقافات الأخرى، ومن هنا كانت خطورة الفن كونها "تنبع من أنه الأب الحقيقي للثورات"[6]. ومن هنا نجد بعض ما كان يؤسس

---

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- محيي الدين اللاذقاني: آباء الحداثة العربية، ص 12.

[4]- أدونيس: الشعرية العربية، ص 79-80.

[5]- أدونيس: الثابت والمتحول، ج03، ص 10.

[6]- أدونيس: الشعرية العربية، ص 80.

للحداثة العربية المعاصرة – ومنهم "أدونيس" على الأخص – ينظر إلى "أبي نواس" على أنه "بودلير" العرب، وإلى أبي تمام على اعتباره "ملارميه" العرب.

وعلينا أن نسجل في هذا السياق بأن نشوء الحداثة في مظاهرها وسياقاتها التاريخية قد اقترن من وجهة نظر "أدونيس" بالسياق التاريخي – اجتماعيا وثقافيا وسياسيا. وهو الذي يؤكد على أن الحداثة الأدبية والفنية قد اقترن نشوؤها في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بالحركات الثورية التي أشرنا إليها، والتي كانت تطالب سياسيا واجتماعيا بالمساواة والعدالة، وعدم التمييز بين المسلم والمسلم على أساس الجنس أو اللون، كما اقترن كذلك بنشوء الحركات الفكرية التي تعيد النظر في المفهومات الثقافية الموروثة، والدينية على وجه الخصوص. كما لا يخفى على أحد أن النظرة التي هيمنت على الدولة الإسلامية العربية كانت تقوم على رسالة هي "الإسلام" (الدين)، وهي تقوم أيضا على "الخلافة"، يرث فيها الخلف السلف، ويحافظ على ما ورثه، وكذلك هي دولة أمة واحدة، الأمر الذي يعني أن "الإجماع" طلب جوهري ليس في الدين والسياسة فحسب، بل في كل شيء؛ كونها أمة وثقافة ودولة قائمة على الإجماع الديني، مما يجعل كل شيء بعد ذلك دينيا يقوم على هو الآخر على الإجماع. وينظر إليه وفق هذه النظرة الدينية التي تعتمد الإجماع، وتكرسه على كل المستويات.

وربما هذا ما يدل صراحة على أن مفاهيم "الحداثة" لدى (أدونيس) لم تتضح في ذهنه كما ينبغي خلال طرحه لها في كتاب "الثابت والمتحول"، وهي ولا شك ستبدو لنا أكثر نضجا لاحقا في كتبه الأخرى، ولا سيما من خلال (بيان الحداثة) الذي يضمه كتاب "فاتحة لنهايات القرن"

يرى أدونيس أن السلطة – الدولة – الخلافة تحارب كل الحركات الخارجة على الإجماع دينيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا وأدبيا. وكانت تنظر إلى هذه الحركات في جانبها السياسي على أنها حركات مارقة وخارجة على الدين، لكونها تمثل خروجا على الخلافة وسلطة الخلافة – الدينية. كما تعتبرها في جانبها الفكري نوعا من الهرطقة أو الإلحاد... وتعدها في جانبها وشكلها الصوفي خروجا على السنة والشريعة، ومن ثم خروجا على الدين والدولة والخلافة والإجماع، وذلك لكون الحركة الصوفية تفصل بين الظاهر والباطن أو الشريعة والحقيقةن مؤكدة على أن المعارف والحقائق تنبثق من الباطنن ويصل إليها الإنسان عن طريق الاختيار الباطني، كما قالت أيضا بالوحدة والاتحاد بين الله والكون وبين الله والإنسان. ومن هنا تجاوزت الصوفية التجريد أو التعالي، بالمعنى التقليدي الديني، لا سيما عندما رأت في المطلق الإلهي معنى يقترن بالمطلق الإنساني، وتغير تبعا لذلك مفهوم العالم، وتغيرت أيضا علاقة الإنسان بالله ضمن المفهوم الصوفي، وعلاقة الله بالعالم حيث أن "العالم في التجربة الصوفية حركة من التكامل المستمر إلى ما لا نهاية، والله ليس وراء العالم وحسب، بل أمامه أيضا، إنه يجيء كذلك من المستقبل، وكما أنه قدم للإنسان أجوبة بالنسبة للماضي، فإنه بالنسبة للمستقبل يطرح عليه هو أيضا الأسئلة لكي يجيب عنها"[7].

[7]- محمد برادة: اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة، مجلة فصول، مج 04، العدد 03، 1984م، ص 20.

أما المثال الثاني الذي يسوقه "أدونيس" تمثيلا للتيار الفكري في تجربة الاحتجاج والخرق التي شكلت مظاهر الصدام وثقافة وفكر الأمة العربية ودولة الخلافة والإجماع – الديني، فيمثله ابن رشد بفلسفته والذي "قصر دور الدين أو الوحي على تأسيس الفضيلة، وقال إن المعرفة والحقيقة هما من شأن العقل. وفي هذا فتح ابن رشد أمام الإنسان أفق البحث المستمر عن الحقيقة، وعن المعرفة"[8].

[8]- محمد بنيس: حداثة السؤال، ص 05- 06.